

البدع والتخرافات

وَالْبَقَايِيدُ وَالْجَنَائِدُ

اقتراح بناء مدفن لعظام الرجال بمصر

نشر في « الجريدة » اقتراح بناء مدفن لعظام الرجال بمصر تنقل اليه عظام من مات منهم ويدفن فيه من سيموت من بعد

نشر هذا الاقتراح بتوقيع « باحثة بالبادية » وما هو الا خيال باحث في الحاضرة او قلمي متفرج في العاصمة قد استعجل جداً بهدم تقاليد قومه الدينية وتعلم من مبادي التقاليد الأوربية الى غايتها

لا أنكر ان بعض العمل التي بني عليها الاقتراح له وجه نظري معروف لثمة وضعت الامم الوثنية من قبل التماثيل والنصب وبنيت القبور وشرقها، وعظمت هذه الآثار المائلة حتى عديتها ولكن كان إثمها اكبر من نفعها، وشرها اكثر من خيرها، ولذلك هدمها الاسلام وحرم نصب التماثيل وتشيد القبور وتشريفها كما في حديث علي كرم الله وجهه في صحيح مسلم وغيره « لا تدع تماثلاً الاطمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته »

ربما قالت باحثة البادية او باحث الحاضرة ان الاسلام ما فعل ذلك الا ليطمس رسوم الوثنية حتى لا تنازع التوحيد في سلطانه على النفوس وهذه العلة مأمونة في هذا العصر « عصر المدنية والنور عصر المادية والعلوم » واذا اتفتت العلة اتفتى المعلول فقد قل مثل هذا القول أحد طلاب علم الحقوق من أولاد علماء الدين ونشره في تمديد رد على من انكر نصب تماثيل لمصطفى باشا كامل وسكت له الجمهور على ذلك ولكن لم يكنوا يسكتهم مدعين

ما سهل تفهيم هذه الشبهة على الاعتراف بصحة ما قيل من سبب تحريم الاسلام للتمثيل والنصب والقبور المشرفة الا انكفي بأن أقول ان هذه شعار وثنية منع الاسلام مسورها لأنها تذكر معادها وهو بعد حين مؤرخي ان تعيد روح الوثنية الى نفوس

المستعدين ، فلا نعيد هذه الصورة وان أمنت العلة الآن ، سداً للذريعة ولو في مستقبل الزمان ، بل أقول أيضاً ان العلة غير مأمونة في هذه الأيام ، لا سيما عند جاهل العوام ، فلونصبت التماثيل وبنيت الهياكل الخاصة لبعض القبور ، فأنهالا تلبث ان تصبغ بالصبغة الدينية بمصر وتبرك بها او يعبدها الجمهور ، وأستدل على ذلك بأقوال دعائها وفعالهم جاء في مقال « باحثة البادية » ما نصه

«والعامة من أهل مصر بل بعض الخاصة لهم ولع فائق بزيارة الاضرحة واعتقاد راسخ بنفع اصحابها حتى انك لو دفنت حماراً وبنيت له ضريحاً وقبة لزاره عدد من الناس يتبركون به وهم يعلمون انه حمار فاذا كان الأمر كذلك في الحمار فكيف به في الرجال وكيف به في عظامهم » اهـ

ونحن نقول مع الباحثة ان عظام الرجال يكونون أجدر بهذا التعظيم والتبرك وهذا ما يحرمه الاسلام وبعده معارضاً للتوحيد

ذكر باحثة البادية من الرجال الذين تقترح نقل عظامهم للمدفن الجديد محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين فتقول كيف نأمن ان تعظم اضرحتهم تعظيماً دينياً بعد ان يتخذ لها مكان خاص يقصد بالزيارة والاول منهم إمام من أئمة الدين وداع من دعاة القرآن ومحام عنه وعن السنة ، واقوى خاذل في عصره للبدعة ؟ كيف نأمن ذلك والثاني منهم على كونه ليس من رجال الدين في العلم ولا في الارشاد ، وليس له مقالة تؤثر في الكتاب ولا في السنة ، ولا في الدفاع عن أصول الاسلام وعقائده ، - قد نعلمه أشياءه جميع الالفاظ التي يعظمون بها أئمة الدين وأولياءه كقولهم : فقيد الاسلام ، رضي الله عنه ، قدس الله سره ، قدس الله روحه . بل قرن بعضهم ذكره بذكر الانبياء ، وكاد بعضهم يفضلهم عليهم . وذكر أخوه الصغير في مناجاة ناجاه بها ان روحه مشرفة على العرش يعني انها فوق عرش الرحمن ! : وذكر أخوه الكبير من انبياء ولادته نحو ماروي في ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من أنه ولد طاهراً مختوناً ، وجملة بعضهم ثاني النبي (ص) في عظمته وكلامه كالانجيل والقرآن . وقال فيه شوقي شاعر الامير

او كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعده رثيت في القرآن

هذا وهو يعلم ان القرآن الحكيم لم ينزل منه شيء ، في رثاء الانبياء والصديقين ،

بل كل ما قال في شأن موت من أنزل عليه وهو خاتم النبيين ، (٣٩ : ٣٥) انك ميت وانهم ميتون ٣١ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أي انك يا محمد تموت وهؤلاء المشركون الذين قالوا (٥٢ : ٣٥) تربعص به ريب المنون) يموتون أيضاً وتختصمون جميعاً عند الله تعالى . وقال (٣ : ١٤٤) وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟) الآية وقد نزلت عندما قتل بعض المسلمين فانهزموا في وقعة أحد اذ صاح صاحح « قتل محمد »

أفرايت من يفلو فيه الناس ذلك الفلأ الذي أشرنا الى قليل مما قرأناه فيه ونحن لم نقرأ الا أقل ما كتب - وسكتنا عما سمعنا من بعض غلاة المارقين وما روي لنا عن بعضهم من مثل قولهم انه كان افضل من الانبياء وانه فعنا اكثر مما فعنا الاسلام! - أيستغرب ان يعظم تمثاله وقبره تعظيماً دينياً ؟ ؟

فيا أيها المتفرنجون أربعوا على ظلمكم وخففوا السير واتندوا بهذه الأمة المسكينة فان مصابها عظيم والخطر الذي يحيط بها أعظم فلا تستمجلوا بهدم ما بقي لها من العقائد والآداب والاحكام الدينية وأتم لم تبوا لها ديناً ولا شريعة أخرى أحسن مما جاء به الإسلام ، ولا تستطيعون ان تحفظوا بقية المالك التي فتحها لكم الاسلام ، إذا فرضنا ان ما ترمون اليه بالتماثيل ونقل عظام الموتى الى أضرحة عظيمة يزيد في تعظيم أصحابها والتبرك بهم والافتداء بسيرتهم هو ما يقيد في ترقيتها وفرضنا انه لا يقوي نزعة الوثنية فيها فدعوه الآن لمجرد نصوص أئمة المذاهب التي تنتمي اليها الأمة في تحريم نبش الموتى وتحريم نصب التماثيل مطلقاً وخذوا بالأمة الى أسباب العزة والقوة التي لا خلاف فيها شرعاً ولا عقلاً وهي كثيرة لا يكاد يدعوا اليها داع ، وكلما يجمع لها مال أو يؤلف لها اجتماع ، ليست المدارس العلمية والدينية ، والكتب التاريخية والفنية ، والجمعيات الخيرية والدينية والادبية ، هي انفع من القبور والتماثيل الوثنية ، فلماذا لا تبذلون لها المال ، وتدعون الى تعميمها في البلاد ، ليست مدرسة مصطفى كاهل افضل ما يعزى اليه من الاعمال ، فلماذا لا تبذلون ترقيتها ما جعتم للتثال ، ليست آثار الاستاذ الامام ، في اصلاح حال المسلمين والاسلام ، هي افضل ما يجبا به ذكره ، ويرغب في التأسى به ، فلماذا لا تبذلون المال لنشرها ، وتعميم النفع بها ؟ ؟

الفصل السابع (٥)

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع
كثرة ما ألفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لا تزال أسرار
موضوع التفكير ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب ، كيف لا وهو
السر الأعظم في جذب الانسان الى مقاماته البلى من الابداع ، والسبب
الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في سراقي الوجدان والادراك . فشرفه
مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم . واما قوم حرموه فقد باؤا بجرمان
عظيم . ولذلك لم نجد بداً من ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة»
فانها منزلة جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء
القوم انهم كانوا لاحظاً لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا
نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كبرت سبباً ان يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتألف
في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم
يكونوا مع ذلك ذوي خطمة جميلة وصورة بديعة

وكبرنا تقصيراً ان لانين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب
هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يهروا اسرار الخليفة نظرة
تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه
على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ، ويحمدونهم أهله الكرام

ان العرب قد تناسبت أجزاءهم ، وتناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ، ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأذمتهم لطيفة ، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بخط عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آية المتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تنفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وإنما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعته ، وحلاوة الميسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهورينهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال ، قد يبلغ به متهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكتروا من وصف الجمال وقدراً ينالهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً : البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة . قال ذو الرمة احد شعرائهم :

بياض صفراء قد تنازعا لوانان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القران المجيد تشبيه حسان

الجنة بالؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عندما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حرته أطف من الحرة الملازمة لبض البيض وعن مثل هذا خبر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حرة خلط صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبيهم بورد الحدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحرة لا تطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قرية بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس عجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهبأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ما هو أولى ، نقلهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، وركت بهم الى عشق الكمال المنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شفقهم الجمال المحسوس ، ان يفهموا الجمال المقبول ، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ولم يبرز عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للرب الحظ الاوفر من الشفق بالحسن والاستعسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم نظمتهم بكل أسباب الحضارة ، ولطنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المتبدل من المعاش ، والتفعل في المتبدل من الاقاليم ، وحبب اليهم المتبدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك انهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللاختخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سابقاً تجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن ، وجودة امثالهن ، والحاكية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امري القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن عليم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لا فراط عزّه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتتزوج اليها وتمتنع ما يلزمه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ما وراءك يا عصام » قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة زينها شعر حالك ، ان أرسلته منك السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنها خطا بقلم ، أو سودا بحجم ، قد تقوسا على مثل عين البهيرة ، التي لم
 ير صبا قانس ولم ينحرف ما تسورة ، بينهما أنف كدال سيف المصقول ، لم يحنس
 به قصر ولم يعض به طول ، حفت به وجتان كالأرجوان ، في يابس محض
 كاللجان ، شق فيه فم كاللثام ، لذيذ البتسم ، فيه ثيابا غرور ، ذوات أشر ، يتقلب
 فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي
 بينهما شفتان حراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كالبريق
 الفضة ، ركب في صدرها مثال دمية ، يتصل به عضدان يمثلان الحما ، مكنزان
 شعبا ، وذراعان ليس فيها عظم عس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كنان
 رقيق قصيبا ، تقدان شئت منهما الا تامل ، تأن في ذلك الصدر ثديان
 كالرمانين يحران عليها ثيابها - الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها -
 وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كعدو
 اللسان ، - فبارك الله مع صنرها ، كيف يطبقان حمل ما فوقهما ،
 ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كتقول بعضهم من تصيدة
 ويزين فوديتها اذا حسرت صافي الفدائر فاحم جد
 فالوجه مثل الصبح مبيض والفرع مثل الليل مسود
 وجبينها صلت وحاجبها شفت الخط أنج تمتد
 وكانها وسى اذا نظرت أو مدنف لما يفتق بعد
 فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه
 كبير ولم يكن حظها هي منه قليلا

الفصل الثامن

تراؤها والنزاهة عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاه الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء أيضا وراؤها في حياة أبها وكانت تاجرة وامل آباها محلها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يجب منه في قومها فاتهم كادوا يكونون كلهم تجارا، تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشرية تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤود، ومنافسة الاقرب والأبعد، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولا ذلك لاستطابوا من العيش ما استطاب ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « نخ نخ عيشنا عيش تامل جاذبه ^(١) وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه، القت ^(٢) والهيد ^(٣) والصلب ^(٤) والعليز ^(٥) والذآنين ^(٦) والمراجين ^(٧) والضباب ^(٨) واليرابيع ^(٩) والقنافذ ^(١٠) وربما أكلنا والله القد ^(١١) واشتوينا الجلد،

(١) تامل من المثل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت القمصنة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصلب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العليز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في الحاجة من الوبز والدم. (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبات طويل ضيف له رأس مدور (٧) المراجين جمع عرجون العود من النخل (٨-٩-١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخنة

فما نعلم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أعر حالاً، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق الميش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقةً ^(١) وخمس تميرات صفار ككوانز
فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم متن عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز
فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السمة ، وإياه
نسأل تمام النعمة «

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما
الاعراب الا بشر قد يستطيع غيرهم من البشر ما يستطيعون اذا اخلصوا
الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة
ما يقم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتساقون الى ما به
الغبطة من المتنيات والدخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات
والبدائع ، ويمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف ، وقوة
في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدم الله لعل عظيم في
الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم
وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أماءهم الا المفاصرة
في السيادة على شموب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لا ثقاً بمن هم
عتيدون لئلا ذلك ان يقبموا في ابداهم ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم
الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع ، بل اللائق

(١) المذيقه تصغير مذقة وهي شربة من اللبن المزوج بماء كثير

يهو لاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من
أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أن ما أسمى لأ ذنى مميشة كفاي ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسمى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام، وكلّ منهم له
في المجد أرب، فلا بدع إذا انصرفت أقسّمهم الى تحصيل المال فإنه أعظم
أدوات هذا المطلب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونهوا بالنبي قومه
عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشير بجنته التي كان يقدمها للفقراء
والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلح في حرب حاربوها
وسلح مئة كفي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل
أحد أخوة السيدة « خديجة » العوام أبو الزبير ^(١) ومنهم أمية بن خلف
ابن وهب وإبنة صفوان الذي أُرعن النبي (ص) أنه قال فيه « ان صفوان
بن أمية قنطري الجاهلية وقنطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير ^(٢) وكثيرون
غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضارين في أغوار رمال العرب وأنجادها لتقل
المتاع من هذه البرية وإليها على سرا كهم سفن البر، بالفينيقين الضارين

« ١ » تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة
عشر عاماً وحضرها مع اعمامه يحيى لم النبيل وعبدالله بن جدعان معري شهر ومث
كبير وهو من نخد بني جمح

« ٢ » أمية بن نخد بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي
(ص) أما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا النهر الى ذلك على
سرا كهم قلائص البحر ، فلئن كانت لا بناء تلك السواحل رحلتا شتاء
وصيف بين زثير الامواج ، ومعاركة الامواء ، فلا بناء هذه البراري أيضا
رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لا تقسمه ولجيراتهم
انما هو في أن محقوا للتجارة لانها في الاعم أقوى الاسباب القربة من
البدائم ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى
فكان لذلك ربهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في
ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان يدم على هذا البعد عن العمران
التصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت
تجبه العرب الى البيت العظيم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب
ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تسق شجرة التجارة في رياض الامن .
وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقفةً في العام قبيل أيام الحج
وينفدون اليها ليدموا ويشروا ، أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول
يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه
« ذوالحجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع باسفل مكة
و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك
الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يمت كل عام الى
سوق عكاظ جمالاً محملة بزاً وطبواً لتباع في هذه السوق ويشري له

بمنها من أدم الطائف^(١) ما يحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعناؤها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال : لله در قيس في أي عش أودع فراخه : يريد بقرى تقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغى الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجمون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي ، وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله المنذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لثلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها وأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

(١) « أدم بضمين وفتحين الجلود المدبوغه والواحد أديم

للطيوب وبمضها لتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يحففونه من ألبان
الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبرها وجلودها
وما كانوا يحففون من التمر والزبيب وغيرهما تجديضاً غير يسيرة يحمل
مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بمضه
في العواصم

نحن اليوم لا تصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر
وجندله حافظون، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء
ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجندله نفسى ان لا يقبس على استغناؤه عن
سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فان هذه الثلاث
لا قوام لقوم بدونها. ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة»
منها لا نقصد به عدّة مفاخر لهم الا من جهة انهم تطبوا بمداركهم وهمهم
على كل ما كان يحول بينهم وبين المنافسة في إدراك شأوا الأمم والابتعاد
عن البداوة من بعد ان أو شك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب
إخوانهم الآخريين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العاصرة
وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق. وترام
مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأتون منه ويرفعون عنه فأقاموا
ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب
كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة
على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فنك اودية يجرود فيها الزرع والفراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم بعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باسرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ما كانوا يأتون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس ، ومنهم من كان يبيع الأدهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة ، وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة ، والعتاقر المعروفة ، والحيوانات المتداولة ، والأسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهيد كان زازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان زازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبهاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التي تحتاج الى عمل التجارة لم تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة الثريين منهم لاننا لم نصلهم الى ذلك العهد وجها من وجوه المراج وتمام المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والفراس ، والاراضي للمعدن ، ، أما الذهب والفضة فهما الواسطة المنطوق في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم من ماضي كثير . من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية فنظر في الجاهلية ونظر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوا له في وطنه (مكة) أدت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في الحبل المسمى بيدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً اقتدوا أنفسهم ووزوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصرياً من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتسرها عند القوم . ومنها ما ورد من انهم اتفقوا على حرب النبي في أحد ربح العير التي جاء بها يوسفیان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبمضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابن فهي أوفر أصناف أموالهم والابن مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه القنى والغناء، والنعمة والهناء، من درها النداء، ومن أوبارها الكساء، ومن جلودها الماعون والخذاء، ومن بمرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء، وظهورها سراكب للظن والحمل والنجاه،^(١)
وبطونها أعظم بها واسطة للنماء، فبمبشك أيها المطالع في أي صنف من
أصناف الأموال الحضرية يجد أحدًا مثل هذه البركة، التي لا تحتاج إلى
شيء عظيم من الحركة؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يمدُّ مالا في جميع جهات الأرض
وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق وإذا صرفنا النظر عن استهجان
هذه العادة نرى أن لاشيء أقمع من عمل الآلة المتحركة بنفسها، النامية
بطبيعتها، المدركة بخلقها،

وأما الأراضي للزرع والفرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيرا
ومن متمولي قريش من كان يملك أراضي في الطائف كمتبة وشيبة أبي ربيعة
(من نخد بني عبد شمس) وغيرها

وكان نظر القوم إلى الزرع والضرع أعظم من نظرهم إلى الذهب
والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال «حجران يصطكان إن أقيمت
عليهما نقدا، وإن تركتهما لم يزيدا، إن أفضل المال برّ سمراء، في ربة غرباء،
أوعين خمرارة، في أرض خوارة»، أشار بهذه الكلمات القليلة إلى أن
الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الأرض
التي هي أول رأس مال أما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن
حركات دولاب الأعمال فقط. وهذا هو الأس الصحيح في علم ثروة الأمم
وأما أراضي المدن فالظاهر أن بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا
أما كون بعضها مشاعا فنأخذ من عادة العرب في جاهليتهم من أنهم لم

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن إنما يجعل لها
حبي وحرما الملوك الذين يمدونها من جملة الاموال العمومية التي هي
حتى للخرافة العمومية خزانة الملائكة . واما كون بعضها كان مملوكاً
فنتفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي^(١)
الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم اشيع ملك بعض الناس ببعض
المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بمد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها
فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القلبيّة (منسوبة الى قبل بفتحين)
وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه أياها
وأقطعه جبل قدس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف
اليها العروض والامثلة التي كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول
اليوم كل ثراء فاز ملك الارض والمعادن لا يزال ايضاً ينبوعاً روراً
للثروة ، واستخدام العملة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق
اعني ان فائده المادية كفاثته ، والنقود لا تزال كثرتها وقتها ايضاً مياراً

« ١ » الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجاً
من قريش « من بني عبد الدار وهط خديجة » وكانت أمواله تستقر في مكة وكان
مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له ان لي ذهباً عند
امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فأتذن لي لأصرع السير
واخبر أخباراً اذا قدمت أدراً بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة
وأخذ أمواله بحية

« ٢ » جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيماً ثروة الاسم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامته والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يمطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالية فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالموأجرة او المضاربة فلذلك لم تصب التجارة على السيدة «خديجة» التي كان لها ما نساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبت به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إثارة هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الأتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بمد نظرها، وعلو همتها، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمى بأقدام أرباب أموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت
أبا هالة النباش بن زوارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج
المرضي في الجاهلية كالزواج في الإسلام أي أن الرجل يخطب إلى الرجل
بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه ، وأما ما يذكر من
أنواع أنكحة الجاهلية الأخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج
المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وإنما يفعل
اغلب ذلك الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من أبي هالة وسماه «هنداً» على عادة العرب
إذا كانوا يضمنون للذكور أحياناً أسماء الإناث فهذه هاهوريب النبي (ص)
أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الإسلام وأسلم. روى
عنه ابن اخته الحسن بن علي حديثاً وصف النبي (ص) المشهور في الشمال
وكان هند وصافياً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم
وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه
السبب وذلك أننا نحب أن لا ندع شيئاً مما يتعلق بسيرة هذه السيدة منفصلاً
ومهملاً ولا سيما بعد أن رأينا كثيراً الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر
ولدها هذا فكاد يضيع ويختفي إلا على المتقنين في بطون الأسفار الواسعة وعندهم

في ذلك انهم انما يترضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها
بزواج النبي (ص)

وان لنا - والحق يقال - حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن
يعرفونا بشخص ممن مفي فيسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونه
ويجذبونها الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطت الشمس لا يبقى لبصيص السراج
مكان. فن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد »
صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء أمّ الحسين ثم يرجع
باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لمرك اذا وصلت يدورها الى هذا المقام تضاهلت امام نظرك كل
ما نسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن
الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رن الكون
كله باسمه الشريف

فن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها
في لوح الوجود ، وبدء اشراق مواهبها في سماه السمود ، أمامها الآن
الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفيض نوراً وسناء ،
وليتبارك كلاً وبهاء

﴿ الخاتمة ﴾

﴿ في ذكر آيات علمية من القرآن ﴾

قلنا إن القرآن الشريف لم يأت لتعليم الناس شيئاً من العلوم الطبيعية ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعميرات الدقيقة العلمية ولا من الإشارة إلى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية مما يدل على أنه تنزيل العليم الحكيم فان هذه المسائل ما كانت معروفة لأحد في زمنه ولا يمكن لعربي أمي في ذلك الوقت أن يقف عليها لولا وحي الله . ولنذكر هنا شيئاً من هذه الآيات المشتملة على التعميرات الدقيقة والمسائل العلمية الطبيعية

(١) قال الله تعالى (٧: ٥٧) وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقاه لبلد ميث فأنزله به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال أيضاً (٤٤: ٣٣) ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار ٤٤ قلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعلبة لآولي الأبصار) وفيه إشارة إلى أن البرق يتولد من السحاب وقوله (من جبال فيها) هو تشبيه لقطع الحساب العظيمة بالجبال لما بينهما من التشابه في الشكل وعدم الانتظام وعظم الحجم كما شبه أمواج الماء بالجبال في قوله (وهي تجري بهم في موج كالجبال)

(٢) قال تعالى (٢٨: ٨٨) وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفاعون) وهو صريح في حركة الأرض . وليس ذلك في شأن القيامة فان قوله (تحسبها جامدة) لا يناسب مقام التهويل والتخويف وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) لا يناسب مقام الأهلاك والابادة . وقال أيضاً (٩١: ٩١) والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها) وهو أيضاً يشير إلى حركة الأرض

(٣) قال تعالى (٣٠: ٣٠) أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وهو صريح في أن الأرض والكواكب كانت شيئاً واحداً ثم انفصل بعضها عن بعض وهو كقول العلماء الطبيعيين إنها كلها أجزاء انفصلت عن الشمس وكانت ملتهبة فصارت تبرد شيئاً فشيئاً وإلى ذلك يشير القرآن بقوله أيضاً (٤١: ١١) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) أي وهي ذات دخان لا تهاب أجزاءها ولكون أكثرها في الحالة الغازية

(٤) قال الله تعالى (١٣: ٣) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهو صريح في أن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وهو أمر لم يعرف إلا من عهد قريب . والقرآن نفسه هو الذي فسر الزوجين بذلك في آية أخرى بقوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

(٥) قال الله تعالى (١٥: ٢٢) وأرسلنا الرياح لواقح) أي ملقحات للأشجار
 (٦) قال الله تعالى (١٧: ١٢) فبحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وهو يشير إلى أن القمر (وهو آية الليل) مظلم لذاته

(٧) قال الله تعالى (٣٦: ٣٧) وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ٣٨
 والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣٩ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٤٠ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

(٨) قال الله تعالى (٣٩: ٢١) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض) الآية

قل لي بأبيك أي عربي أمي يعرف هذه المسائل أو يخطر له على بال وخصوصاً في تلك الأزمان التي كان فيها أعلم العلماء في أرقى البلاد يجمل بعض هذه الحقائق المذكورة في القرآن كدوران الأرض وكون جميع السيارات منفصلة عن أصل

واحد وأنها كانت دخانا . وأن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأُنثى وأن الرياح هي التي تلقحها إلى غير ذلك من دقائق المسائل العلمية الطبيعية . وكلها دلائل على أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر بل هو تنزيل من الله العليم الحكيم
الدكتور محمد توفيق صدقي

باب المناظرة والمدارسة

٤

﴿ بحث العمل بأحاديث الآحاد والحديث المتواتر ﴾

ولنعمد فنقول التواتر هو وان كان من الطرق المفيدة للعلم اذا وجد الا اننا لا نحصر افادة العلم بالأخبار فيه كما اننا لا نلزم به كل أحد قبل ان يعرف انه متواتر اذا لم يقصر في الطلب او كان معذورا بعبءه عن أهله
قال حضرة الدكتور لم يتواتر من اقواله (ص) الا القليل الذي لا شيء فيه من احكام الدين

اقول ما ذكره غير مسلم والتواتر هو ما نقله جمع عن جمع يبعد تواطؤهم على الكذب أي عن محسوس وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعيين هذا الجمع . وبناء على تعيين الجمع فيما نظن قال بعضهم بندرة وعمرة التواتر في الاحاديث النبوية . وهذا اول ما يقال في الاعتذار عن ابن الصلاح في قوله بذلك

قال السيوطي نقلاً عن شيخ الاسلام ان قول ابن الصلاح نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق واحوال الرجال وصفاتهم المتقضية لابعاد العادة ان يتواطؤوا على الكذب او يجعل منهم اتفاقاً — قال ومن احسن ما يقرر به كون التواتر موجوداً وجوداً كثرة في الاحاديث ان الكتب المشهورة (أي المتواترة عن مؤلفيها) بأيدي الناس شرقاً وغرباً المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مؤلفيها اذا اجتمعت (اي او اجتمع بعضها) كما قال ذلك جمهور اهل الحديث) على حديث وتعددت طرقه تعدداً

تجمل العادة تواطؤهم على الكذب أفاد العلم اليقيني بصحته الى قائله . قال ومثل ذلك في الخُتب المشهورة كثير . اهـ

واقول أيضاً ان من مجرد عن التعصب والتقليد لا تخفى عليه الحقيقة المنشودة في هذا الباب . وبما قدمناه وما يأتي يظهر للمُنصف مكانة الخبر الذي ينقله آحاد ثقات قد عرفوا بقوة الحفظ والذكاء والعدالة والورع والتقوى وعرفوا ان الكذب على رسول الله (ص) ليس ككذب على احد وان من كذب عليه متعمداً يتبوأ مقعده من النار اعتقدوا ذلك وهم بالصفات التي عرفت ومحمّلوا من الرواية ما اعتقدوا وجوب العمل به ثم وجوب تأديته لغيرهم كالأمانة وقد علموا ما في الخيانة من الوعيد والترهيب عن كتم العلم

فاذا إتصل سند الخبر بمثل من ذكرناه فهو فيما نعتقد مفيد للعلم اي يبصده ! يمنع العقل عن مثل من نعتاه الكذب عادة ورب رجل يعدل رجلاً — فان قيل سلمنا ان من كان مثل هذا يعد منه الكذب عادة الا انه لا يؤمن عليه النسيان قلت قد علم من عادة المحدثين كتابة ما سمعوه وعلى الاقل للمراجعة الى وقت التأدية وهم لا يعتمدون على المكتوبات الا ما كان موثوقاً به ومحفوظاً بغاية الاحتياط ولا يقبلون المكتوبات التي لا يدري حالها وان كان كاتبها ثقة — وهذا اكبر دليل على ان ما عندهم من الاخبار اصح ما وجد من الاخبار في العالم بعد كتاب الله — وانما كان تواتر القرآن مقدماً على كل خبر لانه نقل بمثل هذه الاسانيد اليقينية متواترة — على انا نستبعد عادة ان الراوي الذي ذكرنا صفاته يحدث بما نسيه اذ لو فعل ذلك لم يكن بالمرتبة التي ذكرناها لا سيما في احاديث الاحكام والاعمال لشدة حاجته وحاجة معاصريه الى العمل بها . على أنه اذا نسي ذلك لا يحدث به وان حدث فانه يذكر اللفظ بالشك . ويبعد كل البعد ان ينسى نسيانه لذلك وابعده من ذلك ان لا يوجد هذا الحديث عند غيره

على انه لو فرض وقوع ذلك وهو غاية الندور فلا نسلم ان ذلك يضر في الدين اذ قد اغتفر ذلك أي النسيان والخطاء فيما حجة الناس اليه اكثر وفيما وجب فيه زيادة الاحتياط . وهما فيه اشد ضرراً وفيما هو سبب للضرر بلا واسطة وذلك

في القضاء لان أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته من الآخر فله يضر الحاكم ان يحكم بخلاف الواقع في هذه الحالة اذا لم يقصر فلأن ينتهر ذلك في الرواية اولى لكون الضرر منها ان وجد لا يكون هو السبب المباشر للضرر غالباً . فحين بذلك ان ماعسى ان يطعن به في الرواية التي وصفناها مع كونه لا يضر في الدين هو بناء شاذ على شاذ على شاذ كل منها بعد وقوعه عادة — بل هو اولى بالوثوق من خبر الجمع الفسقة غير الموثقين الذين يقال في خبرهم يمنع او يعد العقل تواطؤهم على الكذب عادة . فبعد الكذب عن ذكرناه اكثر من بعده عن جمع التواتر الذي ذكره وحيث كان الاصل في جميع العلوم سواء كانت تصورية او تصديقية هو ما ادركه الشخص بأحد مشاعره الظاهرة أو الباطنة أو ما دل العقل عليه أو الوحي السماوي وهذا الاخير لا يكون الا علماً حقاً دائماً وما تقدمه يتفاوت الناس فيه تفاوتاً لا يحصره حد فقد صح لدينا عن المتقدمين وشهدنا ورأينا ما لا يحصى في زماننا انه قد تصحح الجماعات ما يعدونه علماً لديهم بتطبيقه على معلومات فرد واحد بل قد يبين فساد معتقدهم في جانب معلومات الفرد الواحد — وذلك دليل واضح على ان الفرد الواحد الممتاز بالكمال في صفاته وعاداته يعادل بل يرجح بالافراد الكثيرين من نبي نوعه

ومن ايضاً نرى الشخص المنصف قد يتهم نفسه فيما سمعه بأذنه اذا خالفه فيه من يعتقد انه احفظ منه فمثل هذا المنصف اذا اتهم نفسه فيما سمعه بأذن نفسه وقدم على ذلك خبر الممتاز الذي ذكرناه قد يعد كل البعد ان يقدم على خبر سمعه بنفسه خبر الكثيرين غير المدول — وهل يمكن ان يقال ما علمه الانسان وسمعه لا يسمى علماً لجواز زواله بالنسيان؟ فحين بطلان الخبر أو العلم بعد اعتقاد ثبوته هو عندنا يضارع زوال العلم بالنسيان

وايضا احتمال النسيان في الخبر مع الذهول عنه كما انه لا يضر الخبر وهو علم في حقه ما لم يتذكر انه نسيه فكذلك لا يضر الخبر بالفتح اذا كان الخبر بالكسر بالصفات التي ذكرناها

ان خبر الأحاد قد اتفق على اعتباره جميع البشر كما هو مشاهد واعتبرته

الكتب السماوية في شرائعها وانباء الله ورسله في التبليغ عنه والله ورسوله امر الأمة أن يلقوا عنهما جماً وفرادى وبعبارة أخرى كل فرد فرد من الأمة مأمور بالتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلم الله موسى بن عمران عليه السلام ترك بلد من أمره الله بأنذارهم وخرج من بين أظهرهم الى مدين معتمدا على خبر الواحد . واثبى الله على من احتج بخبر الواحد كوثن آل فرعون الى غير ذلك مما لا يكفي لبسطه المجلدات .

كل ذلك معلوم بالضرورة ولا ينكره الا مكابر فكيف يصح قول حضرة الدكتور لا يجب العمل بخبر الآحاد مطلقا ومن ثم قال الامام احمد رحمه الله إن خبر الآحاد الصحيح يفيد العلم وبمقال داود الظاهري والكرائسي والحاسبي وحكي هذا عن مالك بن أنس .

فان قيل ان الجمهور قائلون بأن خبر الآحاد يفيد الظن . قلنا أولاً اذا كان غرض الباحث مقصوداً على طلب الحق وهو ضالته فلا عمل لهذا الاعتراض من أصله على انه يمتثل ان يكون قولهم « خبر الآحاد يفيد الظن » قضية مبهمة أي وهي في قوة الجزئية (١) وبهذا الاعتبار يكون بعض أخبار الآحاد قد يفيد العلم . وأيضاً المعروف من مذهب الجمهور ان المشهور والمستفيض لا يجري فيه الخلاف وذهبوا أيضاً الى ان خبر الآحاد يفيد العلم اذا تلقته الأمة بالقبول بحيث يكونون بين عامل به ومتأول له لأن التأويل فرع القبول وجعلوا من هذا القسم احاديث الصحيحين - بل أكثر احاديث ما صنف فيما يحتج به من الكتب التي صفت في الصراح والحسان لأن أخبار الحسان بتعدد الطرق - ولا يهولك ما قد تسمع به من التفرقة بين رجال الصحيح ورجال الحسن فان شرائعهم في رجال الحديث الحسن ربما لا يلقونها من وسم بأعلام الفضل والعدالة في زماننا هذا - يدلك على ذلك ما عرف عنهم من أقوالهم في الجرح حتى انهم قد يمدون احاديث من

(١) النار : أي هي بمعنى بعض خبر الآحاد يفيد الظن . وفيه ان التبادر من

الإضافة العموم الذي هو بمعنى الكلية وكلامهم صريح في هذا

سمع في بيته الفناء موضوعة - فان قيل ان هذا افراط قد يؤدي الى ضياع كثير من السنن. قلنا لكنه يدل على أن ما في أيديهم مما وسموه بالصحة والحسن منقضى ومبرأ من كل احتمال يؤدي الى عدم قبوله - على أن لا نسلم انحصار وجود ذلك عند من تركوه بل يجوز وجود ذلك عند غيره من الثقات ان كان هو من السنة في نفس الأمر وان كان مكتوباً فلا حاجة لهم ولا لنا به

ان أحاديث الكتب المشهورة عن مؤلفيها فيما يحتاج به من السنن النبوية قد عرفت الأمة بأسرها صحتها أو حسناتها لتعدد الطرق وصارت مقبولة عند الكل وأكثرها قد جمعت ودونت في عهد التابعين أو تابعيهم أما مجرد الكتابة بلا ترتيب للعمل أو للحفظ فقد كان في زمن الصحابة (رض) كما ثبت ذلك من طرق عديدة وعليه فما قرروا صحته فقد اتفقت الأمة على قبوله اذ كانوا بين عامل به ومتأول وهو فيد العلم لان سكوتهم عن الطعن فيها هو كذا بل قبولهم له يدل على معرفة كل واحد من العاملين به أو التأولين له بصحته وهم في كل طريق وطبقة عدد كثير لا يجوز العقل تواطهم على الكذب عادة .

وأيضاً يدل ذلك على ان هناك طرقاً معصدة كثيرة ألجأتهم الى عدم الردولها نرى من لم يلتزم ذلك بالعمل عدل الى التأويل - وان ما هذه حاله لا يبعد ان يقول انه اعلا من بعض أنواع المتواتر - وما ذكرناه معلوم ان عرف حال المحدثين واحتياطهم في رواية السنة -

الاتراهم قد عمدوا حتى الى جميع ما شاع على السنة العوام مما نسب الى النبي (ص) ثم صرحوا بتزييف الزائف وما له أصل رده الى أصله فما بالك وما رأيك فيهم اذا وجدوا مالا يصح مكتوباً في كتب الهداية ؟ اتراهم يسكتون عليه وقد عرف من عاداتهم ان ما في اسناده ولو مجهول واحد لا يحتاج به عندهم ؟ ان أهل الحديث لا يستبرون رواية من انحطت درجته عن مرتبة رجال الحسن لا اعتقادهم ان كثرة الكذابين ونحوهم لا يزيدون الخبر الا وهنا -

لو كانوا يأخذون برواية كل من روى حتى الكذابين والفسقة والكفار كما هي عادة التواترية لبلغ رواية كل حديث من أحاديث الأحكام في كل طبقة إلى

حد الكثرة التي يعتبرها التواترية - فان كان أحد يشك في قولنا فليتبع كتب الصحاح والحسان وكتب الأحاديث الضعيفة وكتب موضوعات الحديث وغيرها من كتب السير والمغازي والتواريخ المسندة والتفاسير وغيرها - اننا لا أشك انه يجد أسانيد متعددة لكل حديث فاذا لم يتقيد بطريقة أهل الحديث في شرائط الرواية وجرى على طريقة التواترية فهو يجزم بان رجال هذه الأسانيد بعد توطؤهم على الكذب - لا سيما اذا لاحظ من عمل بكل حديث من العلماء من عهد النبي (ص) الى حين كتابتها في كتب الحديث -

يقول التواترية ان خبر الآحاد يفيد الظن وقد قدمنا فساده ويرتبون على ذلك كبرى قياس من الشكل الأول وهي فكل ظن أو كل عمل بالظن فهو مذموم بنص القرآن وقد عرفت فساد الصغرى (١) والحق ان بعض الآحاد يفيد العلم

وأيضاً نحن لانسلم الكبرى كلية لأن القرآن انما ذم الخرص وبعض الظن لقوله تعالى « ان بعض الظن إثم » وأيضاً ما ذكره الله من الظن المذموم انما هو الظن في تأسيس الشرائع بلا اعتماد على بينة من الله في ذلك ومن تتبع آيات القرآن في ذلك وجدته انما يذم هذا النوع من الظن أو ما هو في معناه كما قال تعالى قبل ذلك « هل عندكم من سلطان بهذا » وقوله « ما أنزل بها من سلطان » وقد يذمهم الله بما رضتهم ما أنزل من الحق بهذا الظن الفاسد الذي لا يستند الى أصل صحيح كما يرد عليهم تعالى شأنه في قوله « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » وهذا لا يصدق على الاحاديث الصحاح ولو كانت آحاداً ولا على من يعمل بها ولو كان يعتقد ان ذلك من الظن اذ لا يصدق ولا نسلم انها من الظن المذموم اذ هؤلاء لم يعارضوا بها المقطوع اليقيني غاية ما في الباب ان بعض أهل الحديث أو أكثرهم قد جوزوا نسخ القرآن بأحاديث الآحاد الصحاح وقد قدمنا ان جمهورهم يقول ان بعض الآحاد تفيد العلم ومن كان هذا قوله فلا يراد عليه واما من يقول بان ذلك يفيد

(١) النار: اي قولهم ان خبر الآحاد يفيد الظن . وهي المقدمة الأولى من

مقدمتي القياس اي الدليل

الظن فكذلك لا ايراد عليه لانه يقول ان بقاء الحكم ظنياً والحكم المتأخر عنه في الحديث الصحيح أقوى وأرجح فهو انما أجاز نسخ الظن الضعيف بالظن القوي .
ان من قال بأن جميع أخبار الآحاد تفيد الظن وان كل الظن مذموم عند الله وفي كتابه القرآن الكريم — لزمه ان القرآن متناقض متخالف وانه من عند غير الله لان الله أمر وأوجب الحكم بخبر الآحاد وسماه عدلاً في قوله واذ « حكمين الناس ان تحكوا بالعدل — وكون الشيء هناك مذموماً وهنا عدلاً تناقض وخلف وهو في القرآن محال وما اتج المحال فهو مثله فازم ان الذم لا يتناول خبر الآحاد حتى على التسليم بانه ظن فعلي كل تقدير خبر الآحاد الصحيح عدل واجب العمل به على كل من عرف انه صحيح والله أعلم

وايضاً اطلاق الظن مقابلاً للعلم انما هو اصطلاح حادث مخالف لاصطلاح القرآن وعادته في محاوراته لان الله جل وعلا قد اطلق على العلم اسم الظن في مواضع كثيرة من القرآن كما قال تعالى حكاية عن الجن — وانا ظننا ان لن نعجز الله . وقوله اني ظننت اني ملائكة حساية — وظنوا انهم احيط بهم — وظنوا انهم قد كذبوا — فظنوا انهم واقعوها الى غير ذلك مما اطلق فيه لفظ الظن والمراد به العلم فكذلك جملة القرآن من العلماء لا يبعد ان يطلقوا على العلم لفظ الظن كلهم او بعضهم

فمن يقول منهم ان بعض الاحاديث الصحاح تفيد الظن يمكن ان يحمل قوله على ما ذكرنا على انا قد قدمنا انه لا تصدق على ذلك تلك الآيات الواردة في بعض الظن لعدم العلة الجامعة — وفوق ذلك تقول ان عملهم بالاخبار الصحاح انما هو من باب الاختبار والعمل باحسن الامرين او الامور التي انحصر الحق فيها وما ذلك الا لمرجح علموه لا ظنوه كما قال تعالى « اتبعوا احسن ما انزل اليكم — تقبل منهم احسن ما عملوا — فيتبعون احسنه » الى غير ذلك فاذا تعارضت ادلة ولا سبيل للخروج عنها كلها لا ينحصر الحق فيها — والحالة ان الاتباع فرض لازم كما قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله » فيجب على العالم ان يجتهد واذا رجح احدها فهو انما يرجح بمرجح علمه لا ظنه فلا يصح ان يقال ان هذا عمل بالظن حتى يقال انه مذموم

ثم قول للتواترية ان كل ما الزتم به متبعي حديث الآحاد الصحيح هو لازم لكم في تواتركم بمعناه عندكم وزيادة على ذلك تزمكم شاعات وفظائع لا يلتزمها الا من نفى يديه من دين الاسلام بل من سائر الاديان ونحن نبرئ حضرة الدكتور عن التزام ما يؤدى الى ذلك لما عرفنا من كتابته السابقة التي اعلن الرجوع عنها فنقد انه انما يجب الحق واظهاره وانه عند تجليه له لا يتوانى عن قبوله بغاية السرور والبشاشة بل يظهر للملأ رجوعه وان ذلك لما يزيد عند كل منصف اجلالاً

﴿ بحث التواتر ﴾

ماهو التواتر؟ — هو غير معروف عند السلف من المسلمين وانما يعبرون عما كثرت روايته او ما روتها الجموع بالشهور وهو عندهم كثيره لا بد من رواية الثقات له والا لم يكن مقبولاً

اما من عرف عنه التواتر فقد اختلفت عباراتهم في تفسيره ابي حنبله فنهى من قال هو ما نقله جمع يحصل العلم بروايتهم ضرورة — ومنهم من قال خبر جمع عن محسوس يتمتع تواترهم على الكذب عادة من حيث كثرتهم — ثم اختلفوا هل يمكن تعيين جمع يكون اقل نصاب جمع التواتر فقال بعضهم اقله اربعة وقيل خمسة وقيل عشرة وقيل اثنا عشر وقيل عشرون وقيل اربعون وقيل سبعون وقيل ثلاثمائة وبضعة عشر وقيل اربع عشرة مائة وقيل جميع الامة وقيل بحيث لا يجوزهم بلد ولا يحصرهم عدد والمرجح عند التواترين عدم تعيين عدد مخصوص وانما مداره عندهم على حصول العلم من حيث كثرة العدد تارة ومن حيث القرائن اخرى

اقول من احاط علماً بما ذكرناه من اختلافهم في هذا التواتر وفي شرائطه تحقق ان هذا شيء ليس من عند الله اذ لا يمكن القطع به ولا يمكن طرده ولا تطبيقه على كل ما في الاعيان من الوقائع طرداً على وتيرة واحدة بحيث يتفق عليه كافة الناس ويكون قاعدة يصح المرجع اليه لفصل النزاع —

يوضح ذلك انه يمكن على معتمد التواترية وقول جمهورهم ان يكون خبر اهل البلدة العظيمة متواتراً كباريس مثلاً واذا كان خبر الثلاثة والاربعة او الخمسة يصح

ان يكون متواترا بمعنى انه يتمتع تواطؤهم على الكذب عادة والامتناع هذا يكون تارة لمجرد الكثرة اي بلا اعتبار قيد من القيود المعتبرة في الرواية عند اهل الرواية كالبوغ وكال عقل والاسلام والعدالة الى غير ذلك . واذا كان الامر كذلك فاذا اخبر خمسة من الفجرة بخبر مثلا فنحن نناشد الله كل ذي عقل وبصيرة هل يحصل له العلم الضروري بخبرهم وهل يتمتع عنده تواطؤهم على الكذب لكونهم جماعتي لو كانوا كفارا فجرة اخبروا مرة دفعة واحدة ؟ فان كابر وقال نعم قلنا له وهل يجب ان يحصل لكل احد مثل علمك من خبر هؤلاء ؟ وهل تعد من خالفك مكابرا بدلا عن تكون انت المكابر ؟ نحن نستبعد ادعاء عاقل مثل هذه الدعاوي الباطلة

وكذلك قول ان كل جمع يفرضه التواتر مفيدا للعلم من جهة انه جمع فقط لا بد ان يرد عليه ايراد صحيح يقضه الا انه في بعضها ايضاً واظهر من بعض الا ترى ان اعلى ما مثلوها به لذلك هو قولهم كأن يخبر اهل باريس بقتل او موت كبيرهم مثلا قالوا ان هذا يفيد العلم بسبب كثرتهم . ونحن نقول في الجواب عن ذلك هذا مثال واحد ولا يمكن وجود مثله دائما حتى يصح طرده في كل موضع مما يتنازع الناس فيه . ويقال فيه ايضا يمكن ان يكون افادة الخبر العلم في مثل هذا المثال انما كان لقرائن ككونهم اي اهل باريس ونحوهم لافائدة ولا تقصان ولا مضرة عليهم من اظهار مثل هذه الواقعة فصدقهم هنا انما هو للقرائن لا الكثرة لاننا نجد الفرق بين مثل هذا المثال وبين خبر اهل باريس انفسهم فيما اذا كانوا محصورين بصاكر الانكليز مثلا فاخبروا بقدوم عساكر الروس الى بلادهم لامدادهم فهل خبرهم والحالة ما ذكرنا يفيد الصاكر المحاصرة العلم الضروري بحيث لا يتشوقون الى صحته ؟ وهل يمكن كذبهم والحالة هذه ام لا ؟ نحن لا نستبعد الكذب فضلا عن عدم امكانه حينئذ

فان قيل نحن نرى انفسنا مطمئنة لا يتنازعها شك في وجود البلدان النائية التي لم نرها ولا نرى سببا لذلك الا ما تواتر اليها من الاخبار بوجودها قلنا نعم والامر كذلك لكن لا يستلزم ان يكون سبب هذا العلم مجرد الكثرة

وان كانوا كفارا او فسقة فجارا بل لعل ذلك من الكثرة مع انضمام القرآنيين فان القرآنيين انواع واصناف لا يكاد يحصرها حد أو عدد بل القرآنيين قد تقارن خبر الواحد الكاذب المعروف بكذبه وفسقه فيفيد خبره العلم اذا قارنته وايدته وهي تختلف باختلاف اماكن الخبرين وزمانهم ككونهم اخبروا دفعة او متفرقين وباختلاف حالهم من خوف وأمان وعسر ويسر وحب الأوطان والاقدام والفخر وارهاب ورجاء الى غير ذلك مما يعود على الافراد بفائدة او نقص ولو بتوسط فائدة او نقص طوائفيهم واممهم واقوامهم واوطانهم

ولما ذكرناه واضاف اضعافه مما لم نذكره وتلخص ذلك لو سلم صحته ولان تكليف العباد به تكليف لما لا يستطيع بل التزامه وحصر العلم الخبري فيه تعطيل لا كثر معارف البشر والعلم لا كثر الاحكام الديانات ان لم يقل لكلمها واحراج للناس في جميع معاملاتهم ومعاشاتهم وموجب لتقاطعهم فردا فردا كالبهايم لم يجعل الله ذلك اصلا ولا قاعدة ولا مناطا لتحقيق شيء من الامور الدينية ولا الدنيوية ولا نبه عليه احد من انبيائه عليهم الصلاة والسلام ولم نعرفه عن احد من السلف الصالح لا الصحابة ولا تابعيهم باحسان

فالحق عندنا ان اخبار الجموع لا تفيد العلم الا اذا ايدتها القرآنيين او شاركهم الثقات - وخبر الثقات المتواتر هو اعلاها كتواتر القرآن الكريم - ثم خبر الاحاد الأثبات الضابطين بشروطهم يفيد من عرف حالهم او حال من وثقهم العلم ويجب على من بلغه خبر عن المعصوم (ص) ان يبحث عن حاله وحال رواة فاذا وجدهم بالشروط المقبولة فلا يجوز له اهمال ذلك الخبر لاجل كونه لم يتواترنا عرفت مما قدمناه كما هو اجماع المسلمين وانه المستعان (لرسالة بقية)

اهم الاخبار والآراء

(إعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان في الدولة العلية)

في صبيحة يوم الجمعة المبارك ٢٥ جمادى الآخرة صدرت الإرادة السلطانية بإعادة « مجلس المبعوثان » والأوامر من مقام الصدارة الى الولايات بالانتخاب. فشمّل الفرح والسرور جميع العثمانيين في دار السلطنة وجميع الولايات وفي جميع أقطار الأرض وعدوا هذا اليوم العظيم عيداً عاماً للأمة العثمانية على اختلاف مللها ومجتمعاتها أما سبب نيل هذه الأمانة التي تشوف اليها العثمانيون من نحو ثلث قرن بعد ما سلبت منهم فهو التدبير العظيم الذي قامت به جمعيات الأحرار العثمانيين في أوروبا ومصر بعد اتحادها ودخول كبار ضباط الجيش المستنيرين فيها وورثتهم في ذلك في وقت آخر وما كاد نأ البرق يوافي مصر بهذه البشرى حتى انبث فيها بين العثمانيين من الترك والسوريين والأرمن وغيرهم فأنشأ ينهياً بعضهم بعضاً والبشر يتدفق من وجوههم ثم طاف جمهور منهم في الشوارع الكبيرة بالقرب من الأزبكية وهم يهتفون بالأنشيد العثمانية

ثم اجتمع مئات منهم في رحبة قهوة « اسبلند ديار » وطفق يترنم بعضهم بالأنشيد والآخرون يصفقون لهم وقام غير واحد منهم فخطبوا بالتركية وقام صاحب هذه المجلة فخطب بالعربية خطبة وجيزة صفت لها الجمهور من حملة الطرايش والبرانيط بهجة واستحساناً كان موضوع الخطاب ان هذا اليوم عيد لجميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واجناسهم وان الفضل في نيلنا الدستور عائداً لاسمائي أحرارنا وجمعياتنا السياسية وضباطنا ذوي البسالة والحمية ، وانه يجدر بنا معشر العثمانيين ان نتاخر جميع الأمم بنيل الدستور من غير ثورات داخلية تراق فيها دماء الألوفا ويهدك فيها الحرث والنسل : وأنه ينبغي لنا ان ننسى الماضي وان نعمل للمستقبل فنظير للأمم كلها اننا أهل لهذا النوع الرافي من الحكومة فيجب ان يتحد الترك والعربي والرومي والأرمني وسائر الاجناس العثمانية ويقوموا بالأعمال التي ترفع شأن البلاد على قواعد المحبة والمساواة ...

ومما قلته ايضاً انا نشكر للحضرة السلطانية المبادرة الى اجابة طلب الضباط
الناطقين بلسان احرار الامة . فبطل التصفيق او قل عند ذكر السلطان وأشار كبير
من الترك والأرمن اشارات الانكار

وفي يوم السبت التالي اجتمع في دار رفيق بك العظم جهور عظيم من فضلاء
العثمانيين المختلفين في الجنس المتحدنين في العثمانية لأجل المذاكرة في تنظيم مظاهرة
بإعلان السرور وإرسال برقيات الشكر الى جمعيات الاحرار في أوروبا والى الاسنانة
وقد كانت جمعية الشورى العثمانية قررت في يوم الأربعاء الماضي جمع أكثر هؤلاء
الاحرار للمذاكرة في شؤون الثورة ومطالبة الصد الأعظم سعيد باشا بأن ينضم
تاريخه بمساعدة الامة على إعادة الدستور وجمع «مجلس المبعوثان» فلما بشرنا بالبرق
في مساء يوم الجمعة بصدور الارادة السلطانية بذلك تحول مقصد الاجتماع الى ما ذكرنا
اقترح الجمهور ان ترسل تهنئة برقية الى الامير صباح الدين داماد (ابن اخت
السلطان) رئيس جمعيات الاحرار بباريس يشكر له فيها اسمه وسمي الاحرار ويكلفه
فيها ان يبلغ نيازي بك رئيس الضباط الذين اظهروا الثورة العسكرية في مكنونية
وإخوانه كنوري بك وانور بك شكرهم وسرورهم . ورسالة اخرى الى الصدر الأعظم
فاقترح صاحب هذه المجلة إرسال رسالة خاصة الى السلطان . قلت : ان
ضباطنا واحرارنا طلبوا والسلطان أعطى فنشكر له أنه قدر الحال حق قدرها وبادر
الى الاجابة ولم يضطر الجند الى سفك الدماء . فواقفي على هذا الاقتراح من حضر
من السوريين أكثرهم بالقول وبعضهم بالسكوت . وعارضني أكثر الترك والأرمن
وقال واحد من اشهر احرار الترك : انه لم يجب الطلب فضلاً واحساناً ولكنه اجابه
بعد ان أشرعت في وجهه مئة وخمسون ألف حربة (سنكه) وقال بعض المعتدلين
منهم لا بأس بأن يذكر في تعارف الصدر الأعظم تبليغ السلطان سرور العثمانيين
وبعد طول البحث اتتخب الجمهور لجنة منهم لتقرير ما يجب وجعلوا رئيسها اسماعيل
حقي بك القائم العسكري (لان الدستور رجع بقوة الجند) قررت ان تحتفل
في احد دور التمثيل احتفالاً يخطب فيه العثمانيون بالتركية والعربية والفرنسية
(المارچ ۶) (۵۹) (المجلد الحادي عشر)

والارمنية والرومية . وان يعرض على الجمهور المحفل صورة رسالتين برقيتين إحداهما
للأمير صباح الدين أفندي والثانية للصدر الأعظم وترسلان بعد إقراره عليهما . وقد
بذل الحاضرون ما يلزم من النقود لاجل ذلك بغير اكتاب بل بمجرد الأريحية .
وفي مساء ذلك اليوم اجتمع جمهور من المصريين في حديقة الأزبكية لاطهار السرور
بنيل العثمانيين للدستور ومجلس النواب (المبعوثان) حضرنا هذا الاجتماع في اثنا عشر واقترح
علينا حسين بك تيمور الذي دعا الى الاحتفال وبمض العثمانيين ان نخطب بالحاضرين
خطبة تناسب المقام وكان جل اقوالهم إطراء للسلطان بأنه تفضل وتكرم بالدستور اي
بغير علة ولا سبب ، ولا ثورة ولا طلب ، وان جيوشه منتشرة من منابع النيل الى
سيلان ! ! ثم رأينا الجرائد كتبت عن هذا الاحتفال فوصفته الجريدة والمقطع
كما حصل وذكر اللواء عنه نبذة صغيرة معظمها كذب . وهذا ما جاء في الجريدة

مظاهرة في حديقة الأزبكية

اعلن حضرة حسين بك تيمور - انه سيخطب في حديقة الأزبكية نحو الساعة
السادسة بعد ظهر أمس لاطهار السرور بمنحة الدستور لآخواننا العثمانيين . فبناء على
هذا الاعلان توافد الناس من خاصة وعامة الى حديقة الأزبكية ولما وافت الساعة
السادسة التفتوا حول كوشك الموسيقى فافتتح الخطابة حضرة ربيع أفندي المدرس
بالمدرسة التحضيرية فبسط كلمة عن فوائد الدستور ثم قال اننا نؤمل البلوغ الى
غايتنا من نيل المجلس النيابي وان طال علينا الأمد . ثم اختتم خطبته بالدعاء لجلالة
السلطان والامة العثمانية والجناب العالي . وتلاه شاب يدعى الشيخ حسين الغزي
من طلبة العلم في الأزهر الشريف فحذا خطيب الأول في الموضوع ثم تلاه
حضرة الشيخ صادق عمران فتلا قصيدة يمدح بها جلالة السلطان والامة العثمانية
ثم طلب جماعة من رجال الصحافة والادب الى حضرة الأستاذ العلامة السيد رشيد
رضا صاحب مجلة المنار أن يتكلم في الموضوع كلمات تروي القليل فأجاب دعوتهم
واوتقى مكان الخطابة فقال ما خلاصته

« هذا اليوم هو عيد للعثمانيين عامة وعيد المسلمين خاصة فنه عيد بحكومة

الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس . وحكومة الشورى التي قررها الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رددوه الى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

مسائل الأمن والخوف من الامور العامة المتعلقة بسياسة الامة وإدارتها ولم يفوض القرآن الامر فيه الى الرسول (ص) وحده وهو الامام المعصوم وصاحب الشريعة ومبلغها بل جعل الامر فيها اليه وإلى أولي الامر من الامة يديرونها بالشورى بينهم من هم أولوا الامر ؟ زعم بعض المخرفين أو المخرفين ان أولي الامر هم الملوك والسلاطين وهو زعم ظاهر البطلان فان الرسول لم يكن معه حين نزلت الآية ملوك وسلاطين وانما كان يستشير أولي الرأي والمكانة من الامة فهم أولوا الامر بغير نزاع أفرايم هذه الهداية إلى حكومة الشورى وسلطة الامة . هل يوجد عناية وتأکید في شريعة ودين أبلغ منها ؟ اذا كان رب العالمين لم يرض ان يكون خاتم رساله مستقلاً بإدارة الامور العامة دون أهل الرأي من أمته فكيف يرضى أو يشرع لغيره ممن هو دونه بذلك ؟

مع هذا كله لم تلبث حكومة الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ان صارت شخصية استبدادية ولا تخوض في الكلام عن الماضي فانما غرضنا الكلام عن الحاضر قلب الزمان ودالت الدول ودخل العالم الانساني في طور جديد فسبق غير المسلمين الى حكومة الشورى وكانت حكومة دولتنا العلية وهي شخصية على خطر بين الحكومات النيابية الشورية المجاورة لها ففكر بعض أصحاب العقول الكبيرة فيها من نحو نصف قرن في جعل الحكم بيد الامة وانفذوا ذلك من نحو ثلث قرن فوضعوا القانون الاساسي وأنشأوا « مجلس المبعوثان » الذي تعبرون عنه بمجلس النواب ولكن لم تلبث السلطة المطلقة ان استردت هذه المنحة أو هذا الحق منهم لو كانت الامة العثمانية في ذلك الوقت مستعدة للدستور استعدادها اليوم لما أمكن أخذها منها ولكنها لم تنله باستعداد الجمهور بل باستعداد أفراد من نابغي وزرائها أصحاب الادمغة الكبيرة والأفكار البعيدة والغيرة الشديدة كمدجت باشا وخواجانه

لم يكن العتلاء في الامة العثمانية يعدون على الاصابع فيموت الدستور بموتهم بل كان في الامة كثير من أهل الترية العالفة والمعارف السامفة ولكنهم لم يكونوا منبئين في الامة كلها ولا مشتغلين بأشرب روجها معنى الحكم الذاتي

فلا رأوا أنفسهم قد سلخوا ما فيه سعادة الامة وعزة الدولة وانه لا سبيل الى استرجاعه من الاعلى كما جاء أولاً بتدبير مدحت باشا وحسين عوني باشا وإخوانهم رأوا ان يطلبوه من جانب الامة بتوجيه نفوس المعلمين اليه فانشأوا الجمعيات السرية التي ظلت تسمى وتدأب وتصارع الصعوبات حتى اتيح لها الظفر الآ ن ونالت ما تمناه « ولما بلغ هذا المقام من البيان التاريخي المفيد كبر على أناس لم يفقهوا قوله فحدث شيء من الشعب واتقطع الخطيب عن الخطابة اه كلام الجريدة

وأزيد على ما ذكرته الجريدة ما جاء في بعض الصحف وهو ان بعض المصريين صاح ليحي السلطان . لتسقط تركيا الفتاة . او حزب تركيا الفتاة . فصاح بصياحه جمهور من الحاضرين فاستاء من كان هناك من فضلاء الترك وغيرهم من العثمانيين وقال قائل منهم : يا شيخ رشيد لا تتكلم على هؤلاء الذين لا يفهمون . فما زادهم ذلك الا صياحا بسقوط تركيا الفتاة اي الامة العثمانية في حياتها الدستورية الجديدة!!! وظنوا الجهلهم ان من لوازم حب السلطان ان يعيش على شيخوخته وضعفه عمر اطويلا بغير امة او بامة مية وجودها كالعدم فهكذا يكون الاحتفال بالدستور!! اما العثمانيون الاخياف قد جعلوا موعد احتفالهم مساء يوم الثلاثاء غرة رجب وأن لا يذكر الخطباء فيه اسم السلطان بدم ولا مدح ولا تهنته ولا شكر عملا برأي السواد الاعظم وخلافا لرأي اكثر السوريين وهم العدد الاقل في جمهور المؤتمرين بالاحتفال وسند كر شيئاً عن الاحتفال في الجزء الآتي

أرسل اليها كثير من المحبين رسائل التبائي بنيل أمتنا للدستور لعلمهم بما أصابنا من الاستبداد منها ما طار به البرق ومنها ما عدا به البريد منها ما هو به وانا انطاص ومنها ما هو بوصف جمعية الشورى العثمانية . فنشكر لجميع المهتمين عاطفتهم الشريفة ونخص بالذكر لجنة الشورى العثمانية في البرازيل وربما تنشر شيئاً مما فيه العبرة والمائدة من تلك الرسائل

الفصل العاشر)*

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

وإذا العناية صاحبت مرءاً فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه مها حوسك مها نما مها سما
لاتسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها،
وقدر مدارات لحر كآها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا
ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظيات في أحشائهن شملنا، الماديات
بنسائهن نسائتنا، وبأرواحهن كياننا، ولاتسأل لم خلق لنا الأرض جميعا
نشرح أحشائها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلادها، قد حصرناها
على عظمها في يدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان
شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزاءها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش
اللبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت قوسنا الى
غيرها، فاطلنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارك الأسرار
ومنازبها، وارفقنا الى ينابيع الكوان ومظاهرها، وتلمسنا نمة حياة لا
نحتاج فيها الى ماء الأرض وموائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورتنا معشر الإنس وتباعدت حقائقتنا،
ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت قوسنا
بتكثير الصور ثم شقت كل نفس بأزواع منها، وتخالقنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض، وتدارباً في مناهج طلابها، وتقاطنا في سبيل اكتسابها،
ولم هذا البوز في أنصبائنا، والفرق في صرامينا، والبعد في مدارجنا،
والغبين في معارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم ساجحة في أفلاك الحقائق،
وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور
ولاحقها، وبادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاهير دابة
بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القنار وقصبا، ومع المصف
صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندرجة في الاواخر مع اجواتهم
الاول

لانسأل عن هذا كله ان كانت هناك قد وقعت عند مطامنها من
معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية الساري
برها في الاكوان والوجودات، البادي خط جلالها وجلالها على لوح
الآيات الينيات، من الاشكال والتنوعات، ومن آياته أن خلقكم من
تراب ثم إذا أنتم بشر تنشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم
أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات
لقوم يفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنن
والوانكم ان في ذلك لآيات للمالين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار
وابتئازكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم
البرق خوفاً وطمأناً ويُنزِلُ من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها
ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن قوم السماء والارض
بأمسره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون

إذا وقفت تفك عند هذا المطان من المعرفة فقلها تصل بك إلى معرفة
أن ذا الحياة الأزلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا أن نحيط بأسرارها
خبراً مهما حامت حولها آمال مدار كنا، ومهما طافت في سوح قفسها
صوافي سرائرنا، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المساجع الفكرية مجز
أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا إلى مادون هذا السرا الأعظم، ووقوعها بنا
في كثير من أشراك الأوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا،
وفي جوار جوسنا ونوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة إلى الإذعان بأن هذا الحي الأزلي
الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بها ممن يشاء فله الأمر
كاه فيما ييدي، ويصور، وله الحكمة فيما يتوع ويميز، منه كل شيء
والله المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الأزلية، والعناية السرمديّة، فدع نفسك
واقفة ماشاءت في همة النبي، أو دائرة في سجن الشك، أو طائفة في
جو الوم لاقرار لها. واتما تحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون



سبق في العناية الأزلية أن تكون هداية شموب كثيرة إلى أقوم
سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من
هذا الشرف الذي أعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي
أخرج الله إنسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار أشرف قريش وورق عشرة أولاد

(١) اسم عبد المطلب شيبه وتسميته بعبد المطلب حكاية وهي أن أباه هانها

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم إليه فزوجه شريفة من شرافت
قريش من بني زهرة تدعى آمنه فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما
وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمدًا» صاحب القرآن
فما أسعدك يا عبد المطلب أ كنت تدري وأنت في أبواب أبرهة
الجيشي تطلب منه رد ذلك القليل من الإبل الذي لك مما استاقه من إبل
مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تشي أعناق الملوك في الاجيال المقبلة
خاصةً لذكوره

أ كنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين
في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب
المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعته الله
لنصب نبيه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم الى الابد
أ خطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يبعث اليه الا العرب
ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية
أ جاء في خلدك ان كنتك آمنه الزهرية انما ولدت من يشرف الله
به قومك ويجمع به كلمتهم ويبلي سلطانهم وينشر لغتهم وقيم لهم مجداً مع
الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في « يثرب » (المدينة) فلما ولدت له تركه عندها
حتى كبر وكان هاشم تاجراً تخرج تجارة الى الشام فأتى في « غزة » فذهب أخوه
المطلب بن عبد مناف ليأتي ابن أخيه فأبى والدته أن تعطيه ايده حتى أقدمها بأن اتقته
في بلده وبين قومه وعشيرته خيراً له ولا جاء به كان مردفه خلفه على بئر فظنت
قريش انه عبد اتباعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي
هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

هل كنت ملهما اذ سميت محمدًا؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له
المالون تحميداً لا ينقطع، وتحميداً لا يزول؟
أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك به إنما
كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه، والوديعة القدوسية
التي اختص الله بيتك لظهورها، وتوكل لا تتشاور مبداء نورها
فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير أيها المخصوص بعناية
الهي الأزلي، قديم ذكر كجمال المعافل واسمك سامياً مع اسم حفيدك
نبي الشعوب وبركة العالم

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما
الصلاة والسلام أي حوالي سنة سبعين وخمسة مئة منه وحوالي السنة الثامنة
والأربعين من ملك كسرى أو شروان . ولم يكن قومه يعرفون سني
الأمم وتواريخها ولا سني انقسامهم وإنما كانوا يحفظون الأعمار ووقوتها آجال
الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الأميين إلى عهدنا
ولعام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها تقدم تدور
صفوة حكايتها على حزن فيل القائد النجاشي وإبائه المسير لقاء مكة لذلك سميت
بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح أن نقول أنها من التاريخ
المقدس عند المسلمين أي أنها ذكرت في القرآن ولكن على أسلوبه في
القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونقل الأخبار
وقد أعطي لرضعة علي غانة قريش في إعطائهم الأ ولاد للمراضع
من القبائل النازلة قرب مكة ابتداءً ان تربي أجسامهم في البادية حيث
الأرض النظيفة قد كسيت من الأزهار أبدع المنارِق الطبيعية، والنسائم
(المارچ ۶) (۶۰) (المجلد الحادي عشر)

متحملة من ذلك المير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب
عقبى العمل، وسو منقلب الكسل، وكأ ن بينه وبين سكان البراري وساسة
الأنعام عهداً أن لا يقبل بطلته الباسمة الا وهم مستقبليه بالتحيات الطيبات
من مباسم همهم، وتؤمر اجتهادهم، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من
الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وايضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسيتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما
البشر، وتقدت النبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجوههما، ولم يكن
ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت
شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أوقت رياضهم، ولو لم يكن
الوادي لهم القليل مما أغشوا به مرة لقتلهم الظأ - ولا لما حولهما من وافر الرزق
ومابغ النعم لانهم لم يكونا يملكان الا فتيات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد
والجدب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فلاتهما فرحاً،
وأشبهتهما ابتهاجاً، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتفديان به
صباح مساء، ويجددان به شكري على هذه النماء، وهذا ما كانا يتحدثان به :

- حقا يا حليلة انك قد جئتنا بتحنة سنية ونسمة مباركة

- أي والله يا حارث وانظر ما أجمله، انظر الى هذه الاشجار الهدب،
انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى

انكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة
يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبدالمطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت
خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قراء^(١) معنا شارف^(٢)
لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من
بكاؤه من الجوع ما في نديي ما يقبضه ، وما في شارفنا ما يقبضه ، ولكننا كنا
نرجو الفيت والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت^(٣) بالركب
ضمنا ومعنا حتى قدمنا مكة نتمس الرضعا فما منا امرأة الا وقد عرض
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك اننا
كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع
أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت
رضيما غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اني لا أكره أن
أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعا والله لا ذهبن الى ذلك اليتيم فلا خذنه »
قال لا عليك ان تعلمي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت
اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره . قالت فلما أخذته
رجعت به الى رحلي فلما وضعت في حجري أنبل عليه ثديي بما شاء من
لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام
معه قبل ذلك . وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل^(٤) فلب منها ما
شرب وشربت معه حتى انهينا ربا وشيعا فبتنا بخير ليلة قالت . يقول صاحبي
حين أصبحنا تعلمي والله يا دليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت
والله اني لا رجو ذلك . قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملتني عليها معي فوالله

(١) القمرة بالنم لوزن الى الحضرة أو يارس فيه كدرة . حمار أقره أتان قراء

(٢) « الشارف النقة المسنة » (٣) أذمت بالركب أي حبستهم لا تقطاع سيرها من

خلفها أي هزلها وضعفها (٤) حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرم حتى ان صواحي ليقان لي
«يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا»^(١) أليست هذه اناك التي كنت
خرجت عليها؟ فأقول لمن بلي والله انها لمي . فيقن «والله ان لها لساناً
قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أنلم أرضاً من أرض
الله أجذب منها فكانت غنمي روح علي حين قدمنا به منا شباعاً ابناً
فغاب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان
الحاضرون من قومنا يقولون لعياهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي
بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي
شباعاً لبناً فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته
وكان يشب شباعاً لا يشبه النملان»

فيا لك من سميدة يا حليلة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية
الخاصة ولم يكشف لك من آثامها الا هذه البركة التي ملأت يديك وولم يكن أيتها
الراضع الغيبات المرصيات عن اليتيم التماساً لرضاء الذين لهم آباء . لقد فاقن
الخطو وما الخطوظ بالاختيار ، وعزاء لك أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتاماً
* * *

بمدان ربي «محمد» (ص) في بني سعد عند السيدة حليلة جيه
به الى أمه فذهبت به وهو يمتلي قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة
لتزيره أخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان
يسمى الأواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحبيده وتوسم فيه علو
الشأن فالما بلغ الثامنة من عمره ودّعه ، فارقاه ذم الدار وأودعه في الجنب
الآلهي الذي من لدنا وأرسلت الر والركبت العود والي ما أحسن علو

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله
في آل بيته وتمهد تربيته وتثيقته
وكان أبو طالب امراً، نبياً شهماً صادق المروءة، ماضي النزعة، نصيراً
للعادل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن
ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن موافقه امام قريش
في نصره والذود عنه . وقد خلف ابو طالب أباه عبدالمطلب في المقام السامي
بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق
الشرف الهاشمي ، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان
على مثال الخلال الشريفة التي كان يجلي بها ذلك الرجل السامي التريية (أبو طالب)
نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح
القول معها انه كان مستثنياً عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان اعداد
ذلك المفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به
أما تربيته اياه الترية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء
الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لانظير لها وصار
على صورة من الجمال كانت تجمل الذين يرونه يقولون لم تر مثله . ولا يتم
الجمال الا بصحة البدن وهي انما تم بحسن الترية الجسدية
واما تربيته اياه الترية العقلية فكانت جديرة أن يسجد امامها فلاسفة
النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجتازنا في حيرة من
أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناسي الارقاء العقلي ، ومناجم
الإشراق التكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قوانين للمعارف يرتبونها ،
ولا شي الاغرائطية يتوارثونها ، وقواعد عامة يتناقلونها وحصافة أوتوها

في نقش أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الدواكر،
وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون التربية على دروس
المشاهدة في مدارج السبل ، ودروس القصد والاعتدال في مدارج الأمل ،
فيأتي من تلك السلائل التي لم تحتها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول
والاخلاق ، أفذاذ في المهمة والاعمال ، بطبع من المرين ، ونقش من المثقين ،
وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز ، وربيته أنجيب ،
نشأ « محمد » (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على
يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خلقاً وخلقاً ، أذكاهم
عقلاً ، وأزكاهم نفساً ، وأصدقهم لساناً ، أنداهم في العرف يداً ، واثبتهم في
الأزم قلباً ، أرحمهم للضعيف ، وأشجعهم على القوي ، أبرهم للقريب ، وأعدلهم
للبعيد ، أقربهم الى المعروف سماً ، وأبعدهم في الامور نظراً ، أسداهم رأياً ،
وأشداهم اقداماً ، ألينهم للصاحب جانباً ، وأكرمهم للخير صاحباً ، وحسبك
انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك
المنصب العظيم فزاده جمالاً وجلالاً وكالاً والله أعلم حيث يجعل رسالته
نشأه ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثني
عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر
على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتخيرة ، وأحوال العالم
المتحولة ، فني طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت . كانوا
على وجه الارض جمالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحياها الامم شالت
نعامتهم طراً ، وطاروت نعمتهم جميعاً ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فقلك
مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً ، وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحى الى هذا المنعم عليه بمدان صار نبيا قوله سبحانه وأولم يسيرا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها ، ومزارعها ومصانعها ، ومتاجرها وحكومتها ، وأراه كيف يكدرح الناس جميعا لياكل ثمر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع ثمر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس ما تممله تلك الايدي الثقلة ، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليم قوامه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع ثمر آخرون عن المزارعة في هذا الحطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسائي ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما تبقى البدن من جوع وعري وذلك يتسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبمض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في «بصري» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم القراءة أو الكهانة فأبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مر به على أساليب التجارة ، وأطلمه على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بنده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية
البدائع الانسانية ما ليس لتبرم
فمايك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من
صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كذا من فوائد الترية العملية
ما ليس في ألف درس من الترية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي
حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تبا
الصفوف، وتتقابل الأبطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر
الى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف
عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبناً، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم ياشرف في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم
النبيل أو يرد عنهم النبيل . وكان ذلك كافياً لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف
النضال، وليس يخاف ان الاخذ بيد الناشئ الى معارك أبطال المبايات،
ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات، هو أعظم الوسائل التي تجمله أهلاً
للمقامات التي بين الرجال، حتى اذا أتاه الله للاخذ بقوم الى سوح العز
والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نم الدليل الهادي، ونم السائق والهادي
فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا «خديجة» ان يخرج
في تجارة لها الى الشام وتمطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار وأشار
عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضافاً فرضيت وسار بتجارتهما مع الركب
الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه «ميسرة» فلما رجع بالبضائع اليها باعها
فربحت أضافاً وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة» معه